أمثال هذين الشاهدين يحار فيهما العقل الصغير قبل ان يسمع تأويلهما وبيان الحقيقة فيهما ولكن ذلك لا يمنعه ان يصدق ما يشابههما من الحكايات مما لا يظهر له تأويله الا اذا نضب ينبوع الخرافات من خياله وزال سلطان الوهم من قلبه. وهكذا يقيس الجاهل مالا يعرف سببه على مالم يعرف سببه كما يرد العاقل مالا يعرف الى مايعرف .

وقد حدث مثل هذا الحلم لرجل من أغنياء مديرية الجيزة رأى في نومه وليا أخبره انه مدفون في مكان كذا وأخبره بنسبه فاشترى قطعة من الارض بثمن غال وبنى له فيها قبرا مشرفا وقبة عظيمة فخسر بذلك من دينه وعقله اضعاف ماخسر من ماله

ومن المصائب أن الجرائد التي من وظيفتها محاربة الاوهام هي في مصر تزيد الناس غشا فقد سمعنا ان جريدة (اللواء) لما نشرت خرافة السؤال أقرتها . فمثل هذه الجرائد كمثل رؤساء الاديان المضلين الذين يوافقون العامة على أهوائها لاجل الانتفاع بما عندها من الحطام ، ولتمكين الجاه في نفوسها فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

القسم العمومي

نظام الحب والبغض تابع ويتبع

المدنية ، وماهيه ؟

للمدنية تعريفان أحدهما يبين حقيقتها ، والآخر يصف من مزاياها وخواصها ، وآثارها وثمراتها ، وللقارئ هنا حظه من التعريفين :

كلمة المدنية من الكلمات المحدثة عند المتمدنين والمقصود منها «التعاون في العلوم والاعمال لاكتساب المطالب التي تقتضيها حياة الانسان النوعية» هذا هو القول الشارح لحقيقتها .

المطالب آلام في آمال ، وهي طبيعية للحياة النوعية من جملة سنة الله في الانسان . والمدنية طب هذه الآلام وقد وهم من يزعمون ان المدنية هي مجلبة تلك الآلام ، بل الآلام طبيعية من اقتضاء الآمال التي لا تقف عند حد ، وهي من اقتضاء الفطرة . وما المدنية الا علاج تلك الآلام وتسكين ماهنالكم من الانزعاجات التي يثيرها الطلب الحثيث لما فوق الحاجات . فلا تقلدوا الواهمين ولا يلفتكم شعر أولئكم الذين يهجون

الحياة النوعية (التي يمتاز بها الانسان) ويمدحون الحياة الجنسية (التي للبهائم وغيرها) فان الله ورسله والحكماء برآء من الذين يحبون ان لا تظهر فطرة الانسان بأبهى مظاهرها .

المدنية هي التعاون في العلوم والاعمال . والانسان مدني بالطبع ولكن مدنية كل انسان على مبلغه من العلم والعزم . ومدنية كل أمة على مبلغ افرادها النوابغ من النصب في سبيل أمتهم . وكم من امرئ يعيش بين المتمدنين لا حظ له من الشعور بالمدنية وأسبابها الا تقليد القوم بعاداتهم وما خذهم وشعاراتهم في كل شيء . بل هذا حظ الجمهور الآن في كل المشرق . وكم من امرئ يعيش بين المتوحشين فلا يلبث الا قليلا حتى ينهض بهم في المدنية الى الدرجات العلى .

علم أسباب المدنية يقال له « طب الاجتماع » والعالم العامل بهذا العلم يقال له « سياسي » وللسياسيين تأثير في العالم كل بقدره . وهم الذين يتبرون بأذن الله أطوار الامم من هبوط الى رفعة ، ومن رفعة إلى هبوط . ولذلك كان مدار التاريخ في الغالب على أخبار السياسيين فالذين أخلصوا لله في مصنوعاته وأحسنوا عملا رفعوا أممهم وأعلموا أممهم الى منازل السعادة وأوردوهم مناهل السيادة . أولئك تزدان بهم سور الخلد في كل سفر من أسفار الأمم ، وكل عصر من أعصارهم ، وكل مصر من أمصارهم ، يمجدهم الجمهور : الاعداء كالأولياء ، والوضعاء كالاعلياء ، والذين حادوا الله وحادوا في مصنوعاته عن حدود الاخلاص والاصلاح هووا بأممهم وامم مع أممهم الى مهاوي البوار ، وثووا معهم في مثاوي النار ، لا تخفف عنهم الأحمال ، ولا توزن لهم الاعمال ، ولا يلقون في شيء الآمال ، ومن أخسر عملا ممن كفر بالنعم فاضاعها وأحاطت به خطيئته ؟

المدنية جمال معقول مع جمال محسوس : عدل واحسان ، ادب وعرفان ، صنائع وبدائع ، اموال وبضائع ، افهام واوهام ، آمال واعمال ، جمال وتجمل ، مجد وتمجد ، ميزة وتميز .

المدنية مواهب الانسان ، تتجلى للعيان ، يشكرها اولو الالباب السليمة ، ويذكرها اولو الأذهان المستقيمة .

المدنية رابطة يحشر السياسيون تحت لوائها اقواما كثيرين مختلفين بالانساب ، مختلفين بالأديان ، فهي الرابطة التي يتجلى نفوذها وتأثيرها في حفظ نظام الاجتماع .

والرابطتين المسارتين ـ رابطة القومية ورابطة الدين ـ فضل في تنظيم شأنها، وتكبير سلطانها، وفضل آخر في تهديدها اذا طغت في الميزان، واسرفت بالاثم والعدوان، وهي الرابطة التي بواسطتها قامت هذه البنية الحاضرة للاجتماع البشري العظيم. فاذكروا أيها البشر اذ كنتم في الأوجار، تأكلون الاعشاب وتخصفون من ورق الاشجار، واذ فرق بينكم شيطان الشهوات، وأوقعكم في البغضاء والعداوات، واذ أنتم اليوم في المدن الزاهرة، والمظاهر الباهرة، ترجون مافوق الزرقاء، ويرهبكم ماتحت الغبراء، فالفت بينكم قرابة الآمال والمعاملات، أكثر مما ألفت قرابة الابدان والاغذات، برحم الكبير الصغير، والصحيح المريض، وابن البلد ابن السبيل، والآسر الاسير،

واذكروا ماأنتم فيه من الوابور، والبالون، والشمندفر، والتليفون، والتلغراف، والفونوغراف، والفوطغراف، والليطوغراف، والتلسكوب، والمكرسكوب، وماهنالكم مما لم نحصه لتعلموا مافعلت لكم المدنية من خير وما رفعت لكم من قدر على الأنام.

في أقصى المشرق تأخذون نبأ عن أقصى المغرب في لحظة من الزمن لاتجاوز ان يظم الواحد غداه.

من المسافات البعيدة يسمع أحدكم صوت صاحبه كأنه في حضرته.

الى حين من الدهر يحفظ صوت أحدكم ثم يؤديه المستحفظ كما استودعه.

في الدقيقة الواحدة ينسخ لكم ألوف من الصحف السيارة التي تنقل اليكم أنباء المسكونة وسكانها.

في البر تقطعون مسافة الأيام الكثيرة بساعات قليلة على متن ذلول من الحديد لايكل، يطوي بكم البيداء طياً.

في البحر على متن الوابور أنى شئتم تسيرون.

في الجو في بطن البالون حيث رمتم تطيرون

الارض ألقت اليكم من اقلاذها مالم تكونوا تعلمون، السماء عرفتم من أسرار كونها كثيراً مما كنتم تجهلون.

العمي في عهدكم يقرأون، والصم اليكم يكتبون.

ومن المجاهلات عوارف لما تقولون، فواعل لما تأمرون، توارك لما تنهون وتزجرون،

هذه آثار المدنية وهذه ثمراتها . ولكن هل بلغ الانسان فيها الكمال ؟ كلا فان كثيرين من البشر لم تدخل المدنية في عهدنا هذا ديارهم . وفي ديار المدنية يوجد كثيرون غير متمدنين حق التمدن . والمتمدنون أنفسهم لا يزالون سائرين في طرق التكمل . فلا المدنية عمت كل الارض ، ولا المتمدنون بلغوا الكمال .

وقد عمر الارض من قبلنا كثير من الأمم كان لهم نصيب من المدنية ثم ابادهم ومدنياتهم افساد السياسيين واقام غيرهم مقامهم اصلاح السياسيين . ولم توجد امة خلقها الخالق متمدنة وانما هو التدرج تراه في كل شيء . سنة الخالق في خلقه . فاذا رأيتم اليوم في احدى الجزائر قوما متوحشين (التوحش يقابل التمدن) وقد عُمّيَ عليكم تاريخهم فلكم ان تظنوا ان التمدن لم يدخل جزيرتهم قط لأن التوحش سابق دائما . ولكم ان تظنوا انهم كانوا قد تمدنوا يوماً من الايام ، ثم أبادهم وتمدنهم فسقهم عن الناموس والنظام . كذلك عاقبة الظالمين .

يوجد الآن في الارض أقوام كثيرة متوحشة لا يزالون على ما هو قريب من الأطوار الاولى للبشرية اذا شئتم ان تجدوا فرقاً بينهم وبين الحيوانات العليا يصعب عليكم ان تجدوا ذلك الفرق وذلك أعظم سيئات التوحش .

يوجد أولئكم المتوحشون هذا التوحش في كثير من مجاهل أفريقيا التي لم تدخلها جيوش الفاتحة الاسلامية . ويوجدون في كثير من فدافد أمريكا التي لم تختلط بعد بالمكتشفة الاوربية ، ويوجدون في مجاهل أوستراليا (الجزائر الأوقيانوسية) وفي جوار القطبين توجد هذه الضالة التي ينشدها محبو السذاجة .

اما الامم الآسياوية الحاضرة ـ وفي حكمهم أمم أفريقا الشمالية ـ فأكثرهم وارثون لاسلاف متمدنين . ولكنهم أضاعوا ذلك التراث ولم يرعوه حق رعايته فلولا التمدن المستعار الذي وجد بواسطة الاوربيين لصح لنا ان نقول : ان آسيا لا تفضل أفريقيا في التمدن الا بقية من تراث الاولين معرضة للزوال

فمن أخذته الحمية الآسياوية وكان حريصاً على ان يدعي للآسياويين مقاماً بين المتمدنين يجب عليه ان يرد العواري ثم لينظر هل يجد بقية الاعوار ؟

ان يكن في آسيا تمدن غير مستعار فانه ناقص جداً : الاديان من التمدن وقد ضعفنا

بها علماً وعملاً، الحكومات من التمدن وقد خسرنا بها حساً ومعنى ، الزراعات من التمدن ونحن لا نتقنها ، الصناعات من التمدن ولا خبرة لنا بأنواعها الكثيرة، التجارات من التمدن وانا فيها متأخرون ، الزينة من التمدن وانا فيها مرضى الاذواق، العلوم من التمدن وهي عندنا كاسدة ، الآداب من التمدن وهي لدينا فاسدة ، القوانين من التمدن ونحن فيها جامدون ، الاعمال العظيمة من التمدن ونحن فيها خامدون ، الاختراعات من التمدن ولكننا فيها موتى ، الاكتشافات من التمدن ولكن لا تسمعون لنا فيها صوتا،

فاعلموني يارفاقي الآسيويين ماهو تمدننا المحلي الذي نقصه ليس بفاحش وأنتم بعد ذلك غير محاسبين على النقص القليل .

ثم هلموا تنظر نظرة في مدنية أوربا وما أوربا ؟ ـ أوربا الزاهرة ، ذات المدن الباهرة ، والصناع الفاخرة الماهرة ، مقر العلوم العالية ، والاعمال الفائقة ، مهبط السياسة السامية ، وملتقى الساسة النامية ،

هنالكم الاختراعات النافعة ، والاكتشافات الهادية ، على يدهم ظهرت الأرواح الباطنة ، فاصبحت أسرارها سارية ، في الاجسام الجامدة والجارية ، منهم ظهرت الآلات المنبئة ، وبهم تأتيكم انباء الامم النائية ، في اللحظة الواحدة ، صحفهم ناشرة، للانباء الجائبة ، والافكار الذائبة، أولئك هم السابقون في المدنية الرافعة ،

هذه أوربا وهذا مجدها وانا أريكموها من تلك الجهة الثانية جهة النواقص التي فيها :

الاستبداد الذي حاربوه واهرقوا في سبيل محوه كثيراً من دمائهم لا يزال له أثر كامن في صدور العلية منهم ومقلديهم من الدهماء . ومن آثاره أنواع التعصبات الباقية.

الجهل الذي حاربوه بأنفسهم وأموالهم لا يزال بين كثير من طبقاتهم ومن آثاره شيوع الفحشاء والرذائل المتنوعة .

الفقر الذي يدأبون وراء ابعاده عن ديارهم لا يزال آخذاً بتلابيب أكثر الافراد وليس أولو الثروات العظيمة الا نفراً قليلين في بعض المدن الكبيرة.

ثم اذا صرفنا النظر عن مراقي الحياة النوعية فهم يمتاز الاوربيون ؟ هل طالت أعمارهم ؟ هل صرفت عنهم الاسواء من أسقام وآلام ؟ هل خفت عنهم اعباء الحياة

التي تقضي الكد والكدح ؟ هل تقدسوا عن البغضاء فيما بينهم ؟ هل ترفعوا عن سفساف الأمور ؟ هل استقوا عن المشرق البتة ؟ هل بلغوا بلومهم ان يخرقوا نواميس الوجود ؟ هل بلغوا بها ان يكون عيش أحدهم كله كما يتمنى ؟ هل بلغوا بها ان يرتقوا الى عيشة روحية محضة لا نصب فيها ولا لغوب ؟ هل بلغوا بها ان يستغنوا عن الحروب التي هي البق بالمجموعات منها بقي الانسان ؟ هل بلغوا بها ان يستخدموا بين الارواح المدركة كهربائية الايناء والاستيناء ؟

انا شئت ان أعد كل ماهو من النواقص يطول بي المد والسرد . وفي الذي ذكرت اشارات كافية للمتبصر تنبهه الى أمثلة نقصان المدنية الاوربية التي لا يوجد اليوم البشر مثلها عند غيرهم من المشارقة والغاربة الآخرين .

نعم هم لم يبلغوا الكمال ولكنهم ساعون لا يألون جهداً بالاكتشاف والاختراع والبحث والتفكر . ونحن مع نقصنا الفاحش غير ساعين فهل يليق ذلك بنا ونحن ابناء الذين ابتدأوا التمدن ؟ أليست هذه آسيا كم الق ربت في حضنها أشهر مشاهير الرجال ؟

كلا ان ذلك لا يجدر ولا يحسن بأبناء تلك الام التي أحسنت تربية كل المؤسسين الأولين . بل علينا اليوم ان نتفقه في هرابلة المدنية كما تفقه اسلافنا من قبل وحكما يتفقه سيراننا ومعاملونا الاوربيون الذين نعدهم أجانب ومبغضين ولا يتفضنا الجحود ومعاداة كل أشياء الاجنبي باسم الوطن فان الوطن للبشر واحد هو دار الأصدقاء والتكاليف التي تطلب من الكل ، وتوزع على الكل ، ويتبادلها الكل ، وليس حب الوطن هو الكنز على عادات الاسلاف أو الحرص على اللبث في مساقط الرؤوس كما يفسره جمهور العوام ، ولا الاقدام على مجاهدة الذين يريدون ان تكون لهم سلطة فيه وان كانت أنفع من السلطة الاولى كما يفسره جمهور السياسيين ومقلديهم ، فان كلا الفريقين بعيدان عن الحقيقة التي يحبها الحكماء أولو الفضيلة واخوانهم المخلصون من السياسيين . وكم ينشئ السياسيون أشعار حماسة تفعل في عقول الجمهور فعل الامراض العصبية وقد تحقق للعلماء استعداد العامة الذين لم يأخذوا حظا وافراً من العلم لتلك الامراض وماهو على شاكلتها من الانفعالات التوهمية الشعرية والخطابية .

وسوف يرون ـ حين تفيض في حب الوطن ـ ان الوطن هو سبيل الله وسبيل

الله هو الوطن، وتعالى الله عن ان يكون محدوداً يؤدي اليه سبيل، أو محسوساً يدنو منه قيل دون قيل، فسبيله الذي يؤدي الى القرب من منحه القدسية التي يتسامى ويتكمل بها الانسان هو استعمال الفكر مبلغ الاستطاعة في تفهم أسرار الفائضات والمصنوعات الربانية، واقراغ خواصها وفوائدها في قوالب المصنوعات الانسانية، ليكون كل فرد عابداً الصانع الحكيم بمعرفة شيء من أسرار حكمته، وشاكراً على مواهب نعمته، باستعمال القوى التي في فطرته فيما خلقت لاجله، من عمل الصالحات لنفسه واخوته بني نوعه، والله غني حميد.

وهاكم سنين كيف اشتبه على الاقوام شكل الحقيقة في الوطن وكيف وهموا — تقليداً للسياسيين — في حب شيء ليس بجدير ان يحب كمساعدة حكومات جائرة مفسدة على حكومات عادلة مصلحة باسم الوطن الموهوم.

هذا ولا يتفقنا أيضاً تقليد كل أشياء الاجانب باسم التمدن فانه لا عصمة لأمة من الخطأ ولا يستحق أحد ان يقلد تقليداً محضاً بل علينا ان نستعمل التفكر، ونستهدي بالتجارب، ونساعد في تأييد أنفع الروابط، واسقاط أضر الروابط للتكمل البشري يومئذ تقسم الارض الطبيعية غير هذا الاقسام الصناعي ويصافح المشرقي المغربي، والشمالي الجنوبي، على انهم اخوان متعاونون في العلوم، متقاسمون للاعمال، في دار واحدة فسيحة، يحكم بينهم منتخبون منهم متعددون بنسبة التقسيم، ومتحدون بنسبة التنظيم، لا يحارب بعضهم بعضاً باسم القوميات ولا باسم الاديان، ولا باسم الديار والاقاليم، وانما يحارب قوتهم العامة من فسق منهم عن أمر العهد العام، والنظام الشامل.

هذه نسخة من صورة الكمال للتمدن فانظروا لها أجملها وتفكروا فيها ان كنتم تحبون الجمال والكمال. واما الصور الحاضرة فلا والله لا ألقي في واحدة منهن جمالاً، ولا أتصور فيهن كلهن كمالاً، ولا تطمئن بهن قلوب صحيحة، ولا تميل اليهن أفكار سليمة.

واذا كان ميزان هذا الامر بيد السياسيين، فلا يحسن بالناس تركهم ان يفعلوا ما يشتهون بل ليكن شرع وقانون، ليكن رقباء عارفون، ليكن نواب محاسبون، ليكن إخاء عام وتعاون عام، وعهد عام، ونظام عام، ووطن عام، وسلم عام، في ظل قوة عامة. واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا ان الانسان بتلك النعمة جدير، والله على كل شيء قدير.